فكرة المقام في النحو العربي

د/ بلقاسم حمام

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ورقلة – الجزائر.

الملخّــص:

إن طبيعة نظرتنا للشيء، هي التي يتحكم في تقييمنا له، وعليه كانت طبيعة نظرة الإنسان للغة هي التي تتحكم في توظيفها، ودراستها والاحتفاء بها، فكلما كانت هذه النظرة عميقة وشاملة وواعية، جاءت دراسة اللغة كذلك عميقة ومحيطة ومتنوعة وكثيرا ما نذكر أن المحدثين في نظرتهم للغة ووظائفها وطبيعتها يتسمون بالعمق والشمول بالمقارنة بالقدماء.. ولكن هذا الأمر غير مسلم به، لأن نظرة القدماء للغة العربية –في رأينا– لم تحظ بالدراسة المناسبة، والفحص الخاص، ورغم أن المحدثين استفادوا كثيرا من تطور العلوم، وتقاطعها، كما استفادوا من التراكم المعرفي، عبر القرون، وهذا ما جعلهم يرتقون في نظرتهم لطبيعة اللغة ووظائفها، ويدركون أكثر من غيرهم خطورة هذه اللغة وأهميتها في بناء الإنسان، وبناء المجتمع، بل وبناء الحضارة، قلت رغم هذا كله، فإنه لا يمكننا الاستهانة بعبقرية القدماء، والتي إن لم نستطع فهمها أو تقييمها فهذا يعني قصور آلياتنا وإمكاناتنا المعرفية، خاصة إذا تعلق الأمر (باللغة) والتي عاش بها القدماء، وعاشوا لها، وجعلوها محور اهتمامهم، وركيزة حضارتهم.

Résumé:

The way we perceive the thing determines greatly our evaluation of it. That is why, the nature of man's perception to language plays a decisive role in its study and in identifying its functions, and consequently be interested in it. The more this perception is deep, global, and conscious, the more the study of language would be deep, fruitful and varied. We often believe that contemporary scholars's perception to language, its functions, and its nature is more developed, deep, and global than the one of traditional grammarians. This view seems not true. It is a common belief that the perception of traditional scholars to the Arabic language, in particular, and its study did not achieve good results. Contemporary scholars benefited a lot from the previous sciences and the scientific advancement made during this century. This made them look much more successful in their study of language and its functions. They also become more aware of the danger of language and in the role it plays in forming men, societies, and civilization. This can never make us think that traditional grammarians were weak in their study of language. This could simply mean that our means are weak and unsuccessful in understanding their linguistic knowledge.

نحاول في هذا المقال إثبات النظرة التواصلية (التداولية) الاجتماعية للغة عند علمائنا العرب القدماء، ولأن هذه النظرة كادت تصبح حكرا على العصر الحديث، وقد اخترنا مجال النحو وفكرة المقام (السياق) لأنه إذا ما ثبت ذلك في النحو، وأنه علم ينظر إلى اللغة العربية بمنظار تداولي (اجتماعي/تواصلي) فإن ذلك يثبت فيما عداه من علوم مثل البلاغة، والتفسير، والفقه... من باب أولى.

وقد ادعى كثير من الدارسين أن النحو العربي نحو معياري، هدفه الأساس هو القاعدة الثابتة التي تكرس ظاهرة ما، أو تؤسس لاتجاه لغوي معين، وأصبح النحو مجموعة من القوانين تفرض على اللغة، وتفرض ما شاءت على هذه اللغة، ومن ثم راح النحاة[1] يحددون الإطـــار الزماني والمكاني والنوعي للغة التي يعتنـــون بها ثم راحوا يسحبون ملامح وقواعـــد هـــذه اللغة (المثالية) على كل ما عداها،ويحاكمونه بها.

وما إلى ذلك من الاعتراضات والانتقادات التي تكرس فكرة جهل القدماء باجتماعية اللغة وتداوليتها.

ولكنني أقول إن هذا الحكم جائر، ولا يمكن أن نقبله هكذا، لأنه عندنا مجموعة من العناصر تفضي إلى عكس هذه النتيجة، تفضي إلى التدليل على أن علماءنا الأوائل كانوا على وعي تام بتواصلية اللغة ولا أدل على ذلك من:

-1- احتفائهم باللهجات أو لغات القبائل.

-2- تحديدهم الإطار الزماني والمكاني للغة الفصيحة في حد ذاته دليل،إذ هذا الإطار الزماني والمكاني يعني فيما يعنيه، أخذ اللغة من وسط اجتماعي حي في بيئة تحيا فيها اللغة بين أفراد المجتمع (القبيلة)[2].

-3- وعيهم بدور السياق أو المقام (أو ما يسمونه دلالة الحال) في تأدية الوظيفة التواصلية للغة.

-4- لا يعقل -منطقيا- دراسة أية لغة قديما وحديثا بعيدا عن سياقها الاجتماعي والثقافي والعلمي (مع العلم أن هذا السياق يتسع ويضيق حسب أفق الدارس ونظرته، وبيئته وهدفه، ونحن لا ننكر ذلك، وما النحو إلا دراسة للغة في جانب من جوانبها وعليه فإنه سيهتم بالمقام ولكن بالشكل الذي يناسب أهدافه).

وتعد فكرة السياق أو المقام الحجر الأساس لإثبات الصفة الاجتماعية لأي لغة من اللغات، وعليه فإننا إذا ما استطعنا إثبات وعي العرب القدماء بفكرة المقام، ومدى تأثيرها على اللغة سواء من حيث المعجم أو من حيث الدلالة، أو من حيث القواعد (النحو). نكون قد أثبتنا النظرة الاجتماعية للغة التي كانوا يتوافرون عليها.

ولعل حضور فكرة المقام (دلالة الحال) في مجالات مثل: المعجم، والفقه، وأصول الفقه، والبلاغة لا يحتاج إلى تأكيد وإثبات خاصة في هذه الأخيرة، إن يقوم جزء كبير منها، وهو علم المعاني على فكرة المقام، إذ تمثل بالنسبة لهذا الجزء الروح والجسد، وبدونه لا يمكن أن نتكلم عن علم يسمى علم المعاني، بل حتى في الجزأين الآخرين (علم البيان وعلم البديع)، لا يمكن تصورهما أو فهمهما إلا في ظل فكرة السياق.

ورغم أن فكرة المقام عند العلماء القدامى عموما، والبلاغيين خصوصا جاءت بمفهوم سكوني قالبي نمطي مجرد، كما يرى تمام حسان[3]، إلا أنها كانت حاضرة بقوة تحت مسميات مختلفة مثل (مراعاة المخاطب) أو (الغرض) أو الحال.

فهذا أبو هلال العسكري يقول: "وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدوي، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"[4].

وهذا السكاكي يستعمل المقام للدلالة على الغرض في قوله "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يغاير مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم... ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[5].

وقد يعبرون عن المقام بالحال "والحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى التكلم على وجه الخصوص، أي الداعي إلى أن يعبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصيته، ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرا للحكم، حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضاها"[6].

ونحن نقر أن مفهوم المقام (السياق أو الحال) عند القدامى ضيق إذا ما قورن بمفهوم المحدثين[7].

ولكن ذلك لا ينفي أن يتسع مفهومه عند بعضهم ليشمل "مجموعة الاعتبارات والظروف التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون لها تأثيرها في ذلك النشاط من خارجه، بحيث لا تتحدد دلاله الكلام أو تتجلى مزاياه إلا في ظلها، وفي ظل ارتباطه بها"[8].

وبما أن هدفنا في هذه السطور هو إثبات النظرية التداولية للغة عند العلماء القدماء، ارتأينا أن نركز على علم يبدو لأول وهلة أبعد العلوم عن فكرة المقام، ألا وهو علم النحو، لأنه إذا ما ثبت بالدليل اعتماد النحاة على فكرة السياق أو المقام في تفسير الظواهر النحوية، أو تأسيس القواعد،أصبح اعتماد المجالات الأخرى على فكرة المقام أو الحال من باب أولى.

وسنحاول أن نستند فيما نذهب إليه على ما جاء عند النحاة من لدن سيبويه إلى المتأخرين، ولا يفوتنا هنا التذكير بأن النحو العربي بمفهومه الواسع والدقيق جزء من علم البلاغة (وعلم المعاني تحديدا) وقد أفاض في ذلك عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، إذ جعل البلاغة والبيان والنظم هو تحكيم قواعد النحو في قوله "اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها"[9]. وتناول كثير من المحدثين فكرة ارتباط النحو بالبلاغة من خلال الفكر الجرجاني، وأبانوا كل خفي، وأكدوا كل جلي فيها، حتى أن منهم من قام بإعادة صياغة قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم[10].

وعليه يصبح حضور مفهوم المقام عند النحاة العرب أمرا طبيعيا، تفرضه طبيعة النحو الذي ينطلق من اللغة ليصنع قواعد منها ولهـــا بغية حمايتها وتنظيمها، وتدعيم وظيفة (الفهم والإفهام).

هذا من حيث المبدأ، إذ نظريا أصبح من السهل تصور قيام النحو العربي على فكرة المقام، مع العلم أن درجة حضورها وغيابها تعتمد على أمور كثيرة منها طبيعة العالم النحوي، وعصر التأليف والهدف من الكتاب وما إلى ذلك. وسأحاول فيما بقي أن آتي بالأدلة والنماذج من كتب النحاة أنفسهم وأبدأ بأول كتاب كامل في النحو العربي، ألا وهو كتاب سيبويه والذي يحوي كثيرا من المواضع التي تتجلى فيها فكرة المقام، وهذه بعضها، يقول سيبويه:

*"هذا باب من الاستفهام يكون فيه رفعا لأنك تنبه المخاطب، ثم تستفهم بعد ذلك، وذلك قولك : زيد كم مرّة رأيته"[11].

*"هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى، لا تساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار... ومثله في الاتساع قول عز وجل ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء[12] فلم يشبهوا بما ينعق، وإنما شبهوا بالمنعوق به، وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى"[13].

*"هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل، وذلك قولك، زيدا، وعمرا، ورأسه، وذلك أنك رأيت رجلا يضرب أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله، فقلت: زيدا، أي أوقع عملك بزيد"[14]، كما ذكر تحته باب الإغراء،حيث يحذف الفعل، ثم ذكر أمثلة أخرى لنصب الاسم مع حذف الفعل لدلالة المقام عليه.

ونراه بعد ذلك يقارن بين الرفع والنصب، ويفسر النصب بدلالة المقام، فيقول "ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، أن ترى الرجل قدم من سفر فتقول خير مقدم، أو يقول الرجل: رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا، فتقول: خيرا وما سر... وان شئت قلت: خير مقدم، وخيرا...

أما النصب فكأنه بناه على قوله: قدمت، فيقال قدمت خير مقدم، وإن لم يسمع منه هذا اللفظ، فإن قدومه ورؤيته إياه بمنزلة قوله: قدمت[15].

ثم قال معلقا تعليقا يوحي بوعي تام وعميق بسنن العرب، وعاداتهم في الأداء اللغوي، "وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم، واستغناء بما يرون من الحال، وبما جرى من الذكر"[16].

ثم يحاول أن يصوغ قانونا عاما يتحكم في ذكر الفعل وحذفه، وهذا القانون هو إن المقام إذا دل على الفعل حذفناه، وإن لم يحمل المقام ما يدل على الفعل وجب الذكر يقول: "أن الفعل يجري في الأسماء على ثلاثة مجار، فعل مظهر لا يحسن إظهاره، وفعل مضمر مستعمل إظهاره، وفعل مضمر مستعمل إظهاره، وفعل مضمر متروك إظهاره.

فأما الفعل الذي لا يحس إضماره فإنه أن تنتهي إلى رجل لم يكن في ذكر ضرب ولم يخطر بباله، فتقول: زيدا، لرجل في ذكر ضرب، تريد: اضرب زيدا.

وأما الموضع الذي لا يستعمل فيه الفعل المتروك إظهاره، فمن الباب الذي ذكر فيه إياك"[17]، ويقصد باب المفعول الذي مثلنا له،فوجب الإظهار لكون المخاطب جاهلا بالموضوع، ويجب الإضمار حين يكون الموضع موضع تخاطب، يجتمع فيه المتكلم والسامع، فيستغني كلاهما عن بعض اللغة لاستفادة الدلالة من المقام،وقد تكرر هذا كثيرا عنده[18].

كما أشار إلى المقام حين تكلم عن التعريف بـــ (ال) "لأنك إذا قلت مررت برجل، فإنك إنما زعمت أنك إنما مررت بواحد يقع عليه هذا الاسم لا تريد رجلا بعينه يعرفه المخاطب، وإذا أدخلت الألف واللام فإنما تذكره رجلا قد عرفه"[19].

وحينما تكلم عن النعت المقطوع وذلك نحو: الحمد لله الحميد هو، قدم لنا تفسير الخليل لهذه الظاهرة " أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناء وتعظيما"[20]ويجري مجرى ذلك الذم والتجريح والاختصاص[21].

كما أن المقام هو السب في حذف المبتدأ[22].

-كما أن قصد المتكلم هو الذي يتحكم في نصب الفعل المضارع في مثل إذن وحتى والفاء والواو وما إليها[23].

وإذا ما انتقلنا إلى كتاب آخر مثل كتاب ابن السراج (ت 316هـــ) الأصول في النحو، فإننا نجده على الدرجة نفسها من الوعي بأهمية فكرة المقام ودورها في صياغة وتفسير كثير من الظواهر النحوية.

فهو يحصر سبب الحذف بأنواعه في دلالة المقام، فمثلا في حذف المبتدأ أو الخبر يقول: "وقد يعرض الحذف في المبتدأ وفي الخبر أيضا لعلم المخاطب لما حذف... فمن ذلك أن جماعة يتوقعون الهلال، فيقول القائل: الهلال والله، أي هذا الهلال فيحذف هذا"[24].

وفي باب النداء – وهو باب يخضع بكامله لفكرة المقام – نجده غير مرة يستند إلى سياق الحال لتفسير الظواهر، فهو في أول باب النداء حينما أراد بيان الأدوات

وأنواعها لم يجد بدا من توظيف فكرة السياق الخارجي يقول "الحروف التي ينادي بها خمسة: يا وأيا، وهيا، وأي، وبالألف، وهذه ينبه بها المدعو، إلا أن أربعة غير الألف يستعملونها، إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم أو للإنسان المعروض أو النائم المستثقل.. ويجوز أن تستعمل هذه الخمسة إذا كان صاحبك قريبا مقبلا عليك توكيدا، وإن شئت حذفتهن كلهن استغناء"[25].

وفي باب التعريف والتنكير نلاحظ أنه يقوم أيضا على فكرة المقام، فأسماء الإشارة مثلا معرفة – وبعضهم يجعلها متمكنة في التعريف أكثر من الاسم العلم – بسبب الإشارة التي يقوم بها المتكلم اتجاه المشار إليه. "فذا اسم تشير به إلى المخاطب إلى كل ما حضر كما يدخلون عليه هاء التنبيه... وكذلك جميع الأسماء المبهمة إذا أردت المتراخي زدت كافا للمخاطبة لحاجتك أن تنبه بالكاف المخاطب"[26].

ويمكن أن ندرج هنا ما سماه في باب النداء بالنكرة المقصودة، والتي ينقلها المقام من النكرة إلى المعرفة، إذ المعرف في النداء ضربان، "ما كان اسما علما قبل النداء نحو زيد وعمرو.. وضرب كان نكرة فتعرف بالنداء نحو: يا رجل أقبل صار معرفة بالخطاب، وأنه في معنى: يا أيها الرجل"[27].

وابن السراج في باب (رب) يعطي تفسيرا لورود هذا الحرف –وهو حرف جر لا يستقل بنفسه – في صدر الجملة، وكان الأصل أن يتعلق بفعل يربطه بالاسم المجرور، شأن حروف الجر كلها، ولكنها لما حملت معنى التقليل شابهت (كم) فأعطيت حكمها (صدارة الجملة)، ولكنه لا يكتفي بهذا التفسير العقلي، بل يورد تخريجا آخر، يعتمد السياق، وملابسات المقام حيث يقول "والنحويون كالمجتمعين على أن (رب) جواب إنما، تقول: رب رجل عالم، لمن قال: رأيت رجلا عالما، أو قدرت ذلك فيه، فتقول: رب رجل عالم، تريد: رب رجل عالم قد رأيت"[28].

ويعطى رأيه بترجيح التفسير الثاني حين عرض اختلاف النحويين في الواو التي تأتي قبل رب، فقوم قالوا إنها خلف من رب، وقوم قالوا أنها للعطف تدخل على حروف الاستفهام وغيرها، فقال ابن السراج "وهي عندي واو العطف، وهذا أيضا مما يدل على أن رب جواب وعطف على كلام"[29].

كما جاءت الإشارة إلى المقام في باب الحال، خاصة حين لا يتعين صاحبها هل هو الفاعل أو المفعول في مثل قولنا: ضربت زيدا قائما، فالجملة تحتمل الوجهين، ولكنك إذا أردت أن تعيد الحال على غير الملاصق لها "لم يجز ذلك إلا أن يكون السامع يعلمه كما تعلمه أنت، فإن كان غير معلوم لم يجز"[30].

وهذا ابن الأنباري (ت 577 هـ) يوظف فكرة المقام ليفسر لنا قولهم (حينئذ الآن) وذلك حين عرض اختلاف المدرستين البصرية والكوفية في رافع الاسم بعد لولا.

قال "وكذلك قالوا: حينئذ الآن، تقديره واسمع الآن، ومعناه أن ذاكرا ذكر شيئا فيما مضى يستدعي في الحال مثاله، فقال له المخاطب، حينئذ الآن، أي كان الذي تذكره حينئذ، واسمع الآن، أودع الآن ذكره، ونحو ذلك من التقدير وكذلك قالوا ما أغفله شيئا وتقديره: أنظر شيئا، كأن قائلا قال، ليس بغافل عني، فقال المجيب: ما أغفله عنك شيئا، أي أنظر شيئا، فحذف والحذف في كلامهم لدلالة الحال وكثرة الاستعمال أكثر من أن يحصى فدل على أن الفعل محذوف هاهنا بعد لولا "وأنه اكتفى بلولا على ما بينا، فوجب أن يكون مرفوعا"[31].

والفراء يخالف سيبويه والبصريين في جواز دخول اللام في خبر (إن) وخروجها، لأنها عندهم زيادة في التوكيد، ولو حذفت لأغنت عنها (إن)، أما الفراء فيرى أن مقام إن لوحدها، يختلف عن مقام إن مع اللام: فليس دخولها وخروجها سواء، لأن الكلام عنده يقع جوابا للنفي، فقولك: إن زيدا لقائم، جواب من قال، ما زيد بقائم"[32].

وابن هشام (ت761 هـ) يقول في تعريف الكلام بأنه "ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظا أو خطأ، أو إشارة، أو ما نطق لسان الحال"[33].

ونحن إذا رجعنا إلى كتاب من كتب المتأخرين الذين حاولوا جمع المادة النحوية التي تفرقت في مؤلفات كثيرة، لوجدنا فكرة المقام والسياق تواصل حضورها في أبواب كثيرة من أبواب النحو، ولحل كتاب شرح المفصل لابن يعيش (ت 643 هـ) يتوافر على هذه الخاصية، إذ بعد موسوعة في النحو العربي، وسنذكر موضعين دالين على أن النحاة متقدميهم ومتأخريهم وأعون كل الوعي بأهمية فهم المقام لتفسير الظواهر النحوية، لأن النحو مبتغاه الدلالة (المعني) كما هو الحال في علم البلاغة، ثم يفترقان في الاعتناء بوعاء المعنى ألا وهو اللفظ، فالنحو يسهر على أن يكون سليما، والبلاغة تحرص على أن يكون

فصيحا، يقول ابن يعيش في باب الصفة: "وأما الصفة فلا يحسن حذفها أيضا لما ذكرناه، ولأن الغرض من الصفة إما التخصيص، وإما الثناء والمدح، وكلاهما من مقامات الأطناب والإسهاب، والحذف من باب الإيجاز والاختصار، فلا يجتمعان لتدافعهما، وقد حذفت الصفة على قلة وندرة، وذلك عند قوة دلالة الحال عليها، وذلك فيما حكاه سيبويه من قولهم، سير عليه ليل، وهم يريدون، ليل طويل وكأن هذا إنما حذف فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها، وذلك بأن يوجد في كلام القائل من التفخيم والتعظيم، ما يقوم مقام قوله طويل.

وذلك إذا كنت في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلا، وتزيد في قوة اللفظ بالله، وتمطيط اللام، وإطالة الصوت بها، فيفهم من ذلك أنك أردت كريما أو شجاعا أو كاملا، وكذلك في طرف الذم إذا قلنا: سألت فلانا، فرأيته رجلا، وتزوي وجهك وتقطبه، فتغني عن بخيلا أو لئيما"[34].

وفي باب القسم وحذف أجزاء منه يقول: "وربما حذفوا المقسم به، واجتزؤوا بدلالة الفعل عليه، يقولون: أقسم لأفعلن، وأشهد،لأفعلن، والمعنى أقسم بالله،أو بالذي شاء في أقسم به، وربما حذفت لكثرة الاستعمال، وعلم المخاطب بالمراد"[35].

ونقرأ في هذه المرحلة من هذه السطور أن تتبع فكرة المقام في النحو العربي، حري أن يصرف لها مجهود الباحثين، وأن تحظى بدراسة خاصة وعميقة لأن ذلك من شأنه أن يمكننا من:

- تقييم ما مدى استفادة النحاة القدامى على اختلاف عصورهم من فكرة المقام في تفسير الظواهر النحوية من جهة، وفي صياغة القواعد من جهة أخرى.
- الاستفادة منها –عند المحدثين– في نفي كثير من التعليلات العقلية للظواهر النحوية التي جاء بها النحاة القدماء، والاستفادة منها كذلك في تجديد النحو العربي، وإعادة بنائه على أسسه الأولى المتينة التي بدأ منها.

وإذا ما استقرينا نصوص النحاة القدماء، وقد أوردنا منها جانبا اتضح لنا أن مفهوم المقام عندهم يتكون من مجموعة من العناصر وهي:

- المخاطب: علمه، جهله، شكه، حالته.
- معرفة المتكلم بالمخاطب.

-غرض المتكلم.

-النبر والتنغيم.

-الإشارة، وملامح الوجه.

-ما يحيط بطرفي العملية التواصلية (ما يقع تحت سمع وبصر المتخاطبين) وتكاد تكون هذه العناصر هي نفسها العناصر التي حددها العلماء في العصر الحديث للمقام، يقول (ف.فال Valle) عن المقام إنه "مجموعة من العوامل يتعين على الفرد الاحتفال بها حتى يتوفق في إنجاز فعله اللغوي"[36].

ويدخل في المقام عند (برنت روبن) اللغة المصاحبة أو ما وراء اللغة ومنه التنهد والنغمة، والدمدمة، وسرعة الكلام والوقفات، وكلها تساعد على فهم محتوى الرسالة، إضافة إلى الشفرات غير اللفظية مثل المظهر والحركة واللمس، والمكان والزمان[37].

وقد حدد كل من (قالسون Galison) و(كوست Coste) المقام بأنه مجموعة التاج القول، وهي الشروط الخارجية عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معين يستمد وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه، ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما "[38].

وعليه يتبين أن مفهوم القدامى لم يسقط عنصرا واحد مما ذكره المحدثون طبعا مع الفارق في التوظيف، حيث نجح المحدثون –الغربيون خاصة– من الاستفادة من فكرة المقام في نواحي كثيرة مثل النقد، والنظريات اللغوية، ونظريات الإعلام والاتصال وما إلى ذلك، كما أنهم استطاعوا تعميق وتوسيع مفهوم كل عنصر من عناصر المقام المذكورة، ولسنا هنا بصدد المقارنة بين الفريقين وإنما هدفنا كان تبيين انتباه علماء النحو إلى دور المقام والسياق، وهم الذين يبدون بعيدين كليا عن مجاله، عكس علماء البلاغة، وعلماء التفسير وعلماء الفقه وأصول الفقه وما إليها، ونحن بذلك نشد على أيدي بعض الدارسين المحدثين الذين يرون ضرورة إلحاق علم المعاني (وأساسة فكرة المقام)، بعلم النحو، وفصله كلية عن علم البلاغة، الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى الاحتفاء بالقيم الجمالية للأسلوب.

الهـــوامش :

[1]– ينظر: كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار غريب القاهرة، ط3، 1997، ص 71.

[2] – وقد دلل كمال بشر على النظرة الاجتماعية للغة بما يلي:

–1– تنوع مصادر المادة (القرآن، الشعر، النثر...)

–2– جمع المادة (ميدانيا)

–3– اللهجات

–4– المقام (سياق الحال).

ينظر كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، ط3، سنة 1997، ص 79.

[3]– تمام حسان، الأصول، ص338.

[4]– أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 29.

[5]– السكاكي مفتاح العلوم، ص256.

[6]– النهاتوي، موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، ج1، ص616.

[7] – ينظر بلقاسم حمام التواصل اللغوي آلياته وأطرافه دراسة في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر، 2005، ص 343.

[8] – حسن طبل المعني في البلاغة، ص 194.

[9] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 60.

[10] – وهي الدكتورة سناء البياني، وعنوان كتابها هو قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، دار وائل النشر عمان، الأردن، ط1، 2003.

[11]– سبويه، الكتاب تح عبد السلام محمد هارون دار الجيل بيروت ط1، دت، ج1، ص127.

[12] – البقرة الآية 171.

[13] – الكتاب، 212/1.

[14] – الكتاب، ج1، ص253

[15] – الكتاب، 270/1.

[16] – الكتاب، 275/1.

[17] – الكتاب، 297/1.

[18] – ينظر الكتاب، ج1/ص340، 343.

[19] – الكتاب 5/2.

[20] – الكتاب، 65/2.

[21] – الكتاب، 233/2.

[22] – الكتاب، 130/2.

[23] – ينظر الكتاب، ج3، ص 16 و20 و48.

[24] – ابن السراج، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1996، ج1، ص67.

[25] – ابن السراج، ج1، ص 329.

[26] – ابن السراج ج2، ص 127.

[27] – ابن السراج، ج1، ص 330.

[28] – ابن السراج، 1، ص 417.

[29] – ابن السراج، 1، ص 421.

[30] – ابن السراج، 1، ص 214.

[31] – ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1987، ج1، ص73.

[32] – الزجاجي أبو القاسم، كتاب اللامات، ص 76.

[33] – شرح شذور الذهب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط15 سنة 1978، ص 37.

[34] – ابن يعيش، شرح المفصل، قدم له وعلق عليه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ج2، ص 257.

[35] – شرح المفصل، ج5، ص 249.

[36] – الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 58.

[37] – ينظر برنت روبن، الاتصال والسلوك الإنساني، ترجمة نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم، بكلية التربية، جامعة الملك سعود، محمد الدراسات العامة، د ط 1991، ص159 و178.

[38] – ينظر حيلاني دلاش 9.41 . Dictionnaire didactique des langues.1976 p 504